الجمال الفنى فى كتاب البؤساء

لحضرة الاستاذ عبد الوهاب عنانى الخطيب

اثارة من أسى ممض ، وحسرة لاذعة لاتزال تطيف بالأدب العربى كلما ذكر حافظ وشوقى فينكأ الجرح ويدمى أسفا على جبارين من جبابرة الأدب ، أفضى بهما ولع المنون إلى التراب منذ أعوام مضت ، ولئن كان التراب مصير الأولين والآخرين إن الخلود لمصير العظماء والنابغين ، ومن أجدر بالخلود من حافظ وشوقى؟.

وقد زعم بعض الناس أن حافظا مات محدوداً كما عاش محدوداً . فلم يشيعه إلى رمسه إلا نفر قليل من أصدقائه المخلصين ، ولم تقم له حفلة تأبين تليق بمنزلته الأدبية كشاعر بلغ الذروة فى فنه وانتهت إلى حسه إمرة الاجتماعيات فى عصره وزعم هذا الناس أيضا أن شوقى مات مجدوداً كما عاش مجدوداً ، فشيع إلى مقره تشييعاً رسمياً ، وأقيمت له حفلة رسمية فى دار الاوبرا الملكية أبنه فيها كثير من شعراء الشرق وأدبائه فاجتمع له بذلك سعادة الحياة بالضيت البعيد والترف العظيم وسعادة الموت بالذكر الحسن والثناء الجميل.

ثم جفت المآقى من الدمع . وتطاير الصدى من السمع . فاذا الشاعران العظيمان فى الموت مستويان . وإذا الباقى على الزمن قصيدة قالها شوقى فى صديقه وحبيبه حافظ ، خلدتهما معا . هذا زاك وذاك مرثى . وانتزعت من السموأل تلك الصفة التى استبد بها أربعة عشر قرنا كاملا ، وهى صفة الوفاء التى أتى عليها شوقى بالشطر الأول من مطلع قصيدته

قد كنت أوثر أن تقول رثائى . يا منصف الموتى من الأحياء

ولكنه أبى إلا أن يذكر صديقه بالوفاء للحق وللاستاذ الإمام فقال:

الحق نادى فاستجبت ولم تزل ... للحق تحفل عند كل نداء

وأتيت صحراء الامام تذوب من ... طول الحنين لساكن الصحراء

ولقد كان حافظ وفيا للامام محمد عبده حق الوفاء يتجلى ذلك فى كثير من شعره، ورسائله اليه وفى قصيدته التى رثاه بها حيث يقول:

فيا منزلا فى عين شمس أظلنى ... وأرغم حسادى وغم عدانى

دعائمه التقوى وآساسه الهدى ... وفيه الأيادى موضع اللبنات

عليك بسلام الله مالك موحشا ... عبوس المغانى مقفر العرصات

وكان من وفاء حافظ للاستاذ الامام أن تقدم اليه بكتاب البؤساء بعد أن عربه بهذه الكلمة: «إنك موئل البائس ومرجع اليائس وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألم بعيش البائسين، وحياة اليائسين، وضعه صاحبه تذكرة لولاة الامور وسماه كتاب البؤساء وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة الرحمة فوق العدل

وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب وتصرفت فيه بعض التصرف واختصرت بعض الاختصار ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ورأيك الأعلى لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث

أولها: التيمن باسمك، والتشرف بالانتماء اليك. وثانيها: ارتياح النفس، وسرور الفؤاد، برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مهر الكلام، ومقدار كد الأفهام. وثالثها: امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق.

فليتقدم سيدى إلى فتاه بقبوله والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين»

وكان الاستاذ الامام رضى الله عنه أول من عنى بدراسة كتابى «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة» للامام عبد القاهر الجرجانى. وكان — كما يقول حافظ — الرجل الذى يعرف مهر الكلام، ومقدار كد الأفهام. وكان حافظ

من تلاميذه الذين تعلموا منه الحكمة وفصل الخطاب ، وتأدبوا بأدبه وتهجوا منهجه . ولا شك أن الامام قد أرشد حافظا إلى هذين الكتابين ، وحثه على تفهم مافيهما من أدب غال ونقد صحيح . كما أرشده إلى غيرهما من كتب الأدب ، وكان حافظ فهما ، ذكى الفؤاد ، قوى الذاكرة ، وكان مشغوفا بالجزالة يفضلها على السهولة ، لأنه كان جنديا من ناحية ، وكان عظيم الجرم ، جهير الصوت من ناحية اخرى ، وكان يتأثر من ناحية ثالثة اثر استاذه فى الشعر ، محمود سامى البارودى باشا . كل أولئك ، كان له أثر عظيم فى نفس حافظ ، حينما عرب كتاب البؤساء ؛ فان الناظر فى هذا الكتاب يلاحظ كثرة الكلمات اللغوية فى غير نبو ، والمتأمل فيه يلاحظ كثرة الاستعارات فى غير سقم . والمحقق له يلاحظ كثرة الاقتباسات فى غير استيحاش .

١) أما الكلمات اللغوية المنثورة فى ثنايا سطوره ، انى قرأت وجدت : ولعل السر فى ذلك راجع إلى حدب حافظ على اللغة العربية ، ذلك الحدب الذى ظهر جليا فى مقدمة « كلمة فى التعريب » حيث يقول :

« ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها ، تندب خدرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد انتهكته الأوهام .

وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الأقلام أعواداً ، وما هو إلا يثنى ذلك الغربى بدعوته ، حتى يسرع إلى جنازتها أهلها وذوو قرابتها

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم أن هذا خذلان منك ، فأدركنا برحمتك ، وهيىء لنا من أمرنا رشداً

والذى ظهر بأجلى معانيه فى قصيدته الثانية على لسان حال اللغة العربية ، حيث يقول :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فانى أخاف عليكم أن تحين وفاتى

وإحياء اللغة إنما يكون باحياء مفرداتها وتراكيبها ، ولذلك لم يأل حافظ جهداً فى الأخذ بناصرها من هاتين الناحيتين . انظر مثلا إلى قوله:

« فقال له صاحبه وهو يحاوره : لقد بالغت فى محاسنتك كى لاأجيبك بالرد ، وكرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع ، فأبيت إلا الاصرار ، فاغرب عنى أيها الرجل ، ولا تلحف فى السؤال ، فأنا أعلم بك منك » فانك ترى أول ماترى هذا الاقتباس البديع من القرآن الكريم فى صدر الجملة ، قال له صاحبه وهو يحاوره » ، وترى هذا الاسلوب العربى الصميم فى قوله « كرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع » ، وترى إلى جانب هذا وذاك ثلاث كلمات قلما يستعملها غير الخاصة من كتاب هذا العصر ، وهى « لاأجيبك » ، و « اغرب عنى » ، و « لاتلحف » .

وانظر إلى قوله « أين عين فانتين ، ترى ذلك الطمر الذى تضل الابر سبيلها فى شقوقه . وينتهى العدد دون خروقه . تضحى فيه وتخصر . وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب إلى كنف الدار والفناء . وتنطلق والصبح والليل خيطان إلى حبل الماء » .

ألست ترى عجبا فى قوله « تضل الأبر سبيلها فى شقوقه » وفى قوله « وتنطلق والصبح والليل خيطان » ثم ألست ترى عمر بن أبى ربيعة واقفا بجانب هذا الكلام ينشدك قوله

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ثم ألست تلمح خلال هذا الكلام قوله تعالى « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر » ومابال كلمة « الطمر » هنا تمثل معنى البؤس والفاقة أتم تمثيل . ومابال النجع هنا حلوا رقيقا ومابال الطباق بين كلتى

« تضحى » وتخصر » وكلمتى « تنطوى » و« وتنشر » سهلا سائغا . فانظر إلى قوله « وكانت الحمى تمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسها فرجها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم فقامت حتى أظهر النهار أو كاد » أما أنا فأرى أن حافظا قد فاق أبا الطيب حيث جعل الحمى تمشى فى العظام وأبو الطيب جعلها « تبيت » فى قوله .

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

وذلك أن المشى حركة ، والألم المتحرك أشد من الألم الساكن ، ولعل حافظا لمح على البعد بجانب قول أبى الطيب قول أبى نواس

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فأخذ منهما معا وتم له ماأراد . على أن المتنبى ما كان يستطيع أن يقول غير ذلك . ثم انظر نظرة ثانية إلى هذه الجملة وانظر إلى قوله تعالى « فأسر بأهلك بقطع من الليل » فأنك معجب بهذا الاقتباس أيضا .

وأنا وأنت — إلا إذا كنت قد قرأت « أساس البلاغة » لانعرف إلا أصبح وأضحى وأمسى بمعنى دخل فى وقت الصباح وفى وقت المساء . أما أفجر الرجل إذا أدركه الفجر « وأظهر النهار » إذا كان وقت الظهيرة فهذا مالم يقع عليه نظرنا إلا فى كتاب البؤساء .

وكان حافظ يعرف كيف يضع الألفاظ فى مواضعها وكيف يستطيع ان يخلب الألباب بفطنته وذكائه وحسن تصرفه انظر مثلا إلى قوله

« وقد كان يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال

فانتقلت حمرة وجنتيها إلى عينيها . وهاجر سواد لحظها إلى حظها ، وامتد اصفرار شعرها إلى لونها . ودب سقم جفنها إلى صدرها . وسرى نحول خصرها الى جسمها والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال .»

واسأل نفسك . لم جعل خبر كان الأولى كونا عاما وجعل خبر الثانية كونا

خاصا ؟ وما السر فى التعبير بهذه الأفعال السبعة المتوالية التى تدل كلها على الانتقال والتحول ؟

ثم ماهذا الجمال الشائع فى هذا الكلام

أما أنا فأقول ان جمال الوجوه شيء تراه العيون وتدركه الأبصار من غير حاجة الى أعمال فكر بخلاف سحر العيون فانه لا يدرك إلا بتأمل وأنعام نظر ولذلك جاء الكون الخاص هنا (كامنا فى محاجرها) بدعا من القول لتوضيحه المعنى المراد ولأفادته المبالغة فى الاستتار والاستقرار

وقد عبر حافظ بالفعل « انتقل » لقرب العينين من الوجنتين . وبالفعل « هاجر » لما بين اللحظ والحظ من بعد معنوى لأن الأول حسى والآخر غير حسى .

ولما كان الشعر يوصف بالطول والامتداد قال حافظ « وامتد اصفرار شعرها إلى لونها » ثم لما كانت المسافة بين الحفن والصدر بعيدة وطريقها مستتره ملتوية من الأعصاب والاوردة المختلفة ولأن السقم لاينتقل مرة واحدة بل ينتقل متمهلا فى بطء وتسلل كخيوط الغزل ، عبر حافظ بالفعل « دب » الذى يدل على هذا المعنى أتم دلالة فقال « ودب سقم جفنها إلى صدرها » ثم إنى أدع باقى الأفعال للقارىء الكريم ليعمل فيها فكره ورويته

وهنا دقائق يحسن بى أن أشير اليها فى اختصار انظر الى كلمتى « كاد » و« وأوشك » والى كلمتى « يمسح » و« مسحة » وإلى حرفى الجر فى قوله (ما كان على وجهها) و(بما كان كامنا فى محاجرها) وإلى أسماء الاشارة فى قوله (من مسحة ذلك الجمال) و(من ذلك السحر الحلال) و(ذلك الهيف وذاك الهزال) وإلى ذلك السجع الحلو الرقيق ، وإلى تلك الاستعارات المشرقة ، انظر إلى هذا كله يأخذك العجب وتدرك سر جمال الكلام .

٣) لقد وقع لحافظ فى كتاب البؤساء من الاستعارات الصحيحة ، والتشبيهات البارعة ، والتعبيرات اللطيفة ، مالم يقع لأحد فى كتاب قبله أو بعده . وأنى مقف على آثار ما أقول ببعض المثل .

ا) فمن ذلك قوله على لسان صاحب الدار التى طرقها جان فالجان بعد أن شاع

خبره فى مدينة دينى .

« ولقد راعنى منك مايروع المرء من قاتله وكأنى اسمع صوتا يقطر منه الدم)

أذكر أنى قرأت الجملة الأخيرة فى كتاب الكامل للمبرد على لسان أعرابية طلب زوجها فى ثأر ، ومع ذلك فأنى أرى كأنها ماخلقت إلا لتكون فى موضعها من هذا الكلام

وقوله تعقيبا على كلمة (سيدى) وموقعها من نفس جان فالجان ، حينما سمعها من عايد مدينة دينى (ولايزال المصاب فى شرفه على ظمأ إلى نهلة من موارد الاحترام ، حتى إذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل) وقوله فى سراج العابد (أرى سراجا مريض الفتيلة ضئيل النور) وقوله يصف الشتاء « فأذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ، ينذرها بيوم قصير وجو مطير . وضباب مقيم ، وأفق مظلم ، ونهار يعثر صباحه بمسائه وليل يجهل أوله آخره ، وشمس رمداء وسماء مكهفرة الارجاء ، انظر إلى الكلمات (يعثر) و(يجهل) و(رمداء) ماأحلى مواقعها هنا وقوله فى مادلين وهو مسافر ليلا (وغاب فى أحشاء ليل قد كسر على الأرض جناحيه) هذه استعارات يقف القلم أمامها فى حيرة من جلالها وجمالها

ب) ومن التشبيهات البارعة قوله

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود إلى شاطئه ، استطاع أن يرد الفكر عن العود الى مناطه ، وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم ، فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط وقوله إنما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس ، لايلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل) وقوله (وسرى اضطراب باطنه إلى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو الى المشى فترك يمشى وحده ، فهو لايكاد يتماسك)

وقوله (وهفا بنا فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد ، أصلع الرأس جميعه حتى أن الناظر إلى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه

ج) وأما المقتبسات التى أتيح لحافظ أن يضعها فى تضاعيف البؤساء فكثيرة

بعضها من أشعار العرب وبعضها من القرآن الكريم وكلها تدل على سلامة ذوق ولطف مأخذ وغزارة مشرب وحسن وضع وجمال تنسيق واليك بعض المثل :

١) فهو ما مر به طير إلا وفزع ولا نبحه كلب إلا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فإذا أغفى سلت عليه سيوفها ، الأحلام ، وإذا تيقظ راشت اليه سهامها الأوهام

لم يكد القلم يفرغ من إيراد المثل على حلاوة السجع حتى وقع هنا فيما هو أشهى وأحلى

وأنا ما ضربت هذا المثل إلا لأبين لك إلى جانبه قول أشجع السلمى فى مدح الرشيد .

وعلى عدوك يابن عم محمد ٭ رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته وإذا غفا ٭ سلت عليه سيوفك الأحلام

(٢ وأصابت منه تلك اللفظة (سيدى) مواقع الماء من ذى الغلة الصادى وللقطامى :

يقتلننا بحديث ليس يعلمه ٭ من يتقين ولا مكنونه بادى
فهن ينبذن من قول يصبن به ٭ مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

٣) وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد ولبشار :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ٭ خرجت مع البازى على سواد

٥) فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها بأجزاء نفسه مخالطة للأشرار فى أيام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا ولأبى العلاء .

جهول بالمناسك ليس يدرى ٭ أغياً كان يفعل أم رشادا

٥) وذهب مادلين إلى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان ولأبى العلاء .

فكأنى ما قلت والبدر طفل ٭ وشباب الظلماء فى عنفوان

٦) ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء إذا لم تحصن فرجها وغادرها وهى جفن سلاح . وللفرزدق .

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح ٥ عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفى جوفه من دارم ذو حفيظة ٥ لو أن المنايا أنسأته لياليا

٧) وتحمل بين ذراعيها طفلة ساجية الطرف عبلة الساق وضاءة الجبين لها من صدر أمها مهاد ومن ذراعها وساد . أخذ الكرى بمقاعد أجفانها فنامت نوما هنيئا وللبارودى :

أخذ الكرى بمقاعد الأجفان ٥ وهفا السرى بأعنة الفرسان

٨) فخرجت ربة المنزل بالصمت عن لا ونعم وأشارت برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول : ولبشار :

وإذا قلت لها جودى لنا ٥ خرجت بالصمت عن لا ونعم

٩) وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها . ولأبى نواس :

معتقة صاغ المزاج لرأسها ٥ أكاليل در ما لناظمها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك

١٠) ذلك هو الرجل « جافير » الذى مافتىء يتعقب مادلين ويسير على أثره مسير القضاء فى حجب الغيب

ولابن الرومى :

لك مكر يدب فى القوم أخفى ٥ من دبيب الغناء فى الأعضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيـ ٥ ـب إلى من يريده بالـــتواء

١١) اللهم إنك تعلم أنى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس وصبرت حتى ملنى الصبر . وللبحترى :

واشترانى العراق خطة غبن ٥ بعد بيعى الشام بيعة وكس

ولمصطفى صادق الرافعى :

طريدة بؤس مل من بؤسها الصبر وطالت على الغبراء أيامها الغبر
وأن كنت لا أدرى أيهما أسبق

١٢) فأصبحت لا تخشى نازلا ، وأمست لا ترجو نائلا ، وباتت لا تبالى ما انتفعت بأن تبالى :

ولأبى الطيب

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى

١٣) فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول . وللبارودى :

فكأنما افترست بطائر حلمه مشمولة أوساغ سم الاسود

١٤) ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون . لتماسكت وأن زعزعنى الدهر وبالغت فى تطفيف قوتى الايام والليالى . وللبحترى :

وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ـر التماسا منه لتعسى ونكسى

١٥) وإنى لأشعر كأن قوة باطنه تسوقنى اليه فهو مدركى وان أمعنت فى الهرب وللنابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

١٦) فلو أن رائيا رآنى الساعة لما شك فى أنى قريب عهد بالافاقة من سقم أو بالافلات من براثن حادث .

ولأبى نواس :

بعيدة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم

١٧) وإذا تأنقت الاقدار فى مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها ولأحد الشعراء

اليوم يومان مذ غبت عن بصرى نفسى فؤادك ما ذنبى فاعتذر

أمسى وأصبح لا ألقاك واحزنى لقد تأنق فى مكروهى القدر

لم أقف على هذين البيتين إلا فى كتاب دلائل الاعجاز

١٨) فقال لى أخى أعطف بنا على هذا الطريق الاجوف وكان طريقا سماؤه فى لون الارضه . وللراجز :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه .

وقد وقع عليه نظرى فى متن « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى .

١٩) وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها وللبحترى :

يفتلى فيهم أرتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس

٢٠) وكان الوادى فى ظلام دامس والضباب (دان مسف فوق الارض هيدبه) ولعبيد بن الابرص :

دان مسف فويق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

هذا هو الاقتباس الوحيد الذى وضع بين قوسين ونبه اليه الشاوح ولم يذكر اسم الشاعر .

ذلك مبلغ علمى مما اقتبسه حافظ من الشعر فأما ما اقتبسه من القرآن الكريم فكثير يستطيع القارىء أن يدركه من غير كبير عناء ولكنى سأورد بعض الأمثلة لذلك أيضا اتماما للبحث .

١) لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح شارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

٢) ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء .

٣) اللهم ان كنت قد استرجعت منى هبة النظر فقد جعلت أفئدة من الناس تأوى إلى والقرآن: « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم »

٤) فدع عنك هذا الاغراق فى الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين والقرآن (واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين)

٥) فليرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولا : والقرآن «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »

٦) فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية والقى عليه قولا ثقيلا: والقرآن « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »

أما بعد : فقد قال ابن المقفع : « ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره ، فتكلم به فى موضعه ، وعلى وجهه ، فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء — ولا عليه ألا يزداد — فقد بلغ الغاية »

ودخل غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين على رضى الله عنه أيام خلافته وغالب شيخ كبير ومعه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ . فقال له على رضى الله عنه: من الشيخ ؟

قال : أنا غالب بن صعصعة : قال : ذو الابل الكثيرة ؟ قال نعم . قال : ما فعلت إبلك ؟ قال : زعزعتها الحقوق وأذهبتها الحمالات والنوائب . قال ذاك أمهر سبيلها من هذا الغلام معك ؟ قال . هذا ابنى . قال ما اسمه . قال . همام وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً . فقال . أقرئه القرآن فهو خير له ، فكان الفرزدق بعد يروى هذا الحديث ويقول : مازالت كلمته فى نفسى حتى قيد نفسه بقيد وآلى ألا يفكه حتى يحفظ القرآن فما فكه حتى حفظه

ياعجبا . ماكان أشبه حافظا بالفرزدق وماكان أشبه الامام محمد عبده بأمير المؤمنين على بن أبى طالب ولعل خير كلام يختم به هذا البحث تلك الرسالة التى بعث بها الاستاذ الامام إلى حافظ يشكر له تعريبه كتاب البؤساء وهى آية من البلاغة يندر وجود نظير لها فى البيان العربى. قال الامام :

(رسالة الاستاذ الامام)

لو كان بى أن اشكرك لظن بالغت فى تحسينه : أو احمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه ، لكان لقلمى مطمع ان يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجرى فى الشكر الى الغاية كما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا وبسطته على القريب والبعيد من ابناء لغتنا ، زففت إلى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم يومها ، ولاتزال تنبه منهم خامدا ، وتهز فيهم جامدا ، بل لاتنفك تحيى من قلوبهم ماأماتته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ماأعوزت فيه الأسوة . حكمة افاضها الله على رجل منهم ، فهدى الى التقاطها رجلا منا ، فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وحلاها للناظر وحلاها للطالب ، بعد ماأصلح من خلقها ، وزاق من معارفها ، حتى ظهرت محببة الى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، نهش الفهم ، وقبس للطف الذوق ، وتسابق الفكر الى مواطن العلم ، فلا بكاء يلحظها الوهم ، إلا وهى من النفس فى مكان الالهام .

حاول قوم من قبلك ان يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك ، فوقف العجز باعلابهم عند مبتدأ الطريق ، ووصل منهم فريق الى مايحب من مقصده ، ولكنه لم يعن ان يعيد الى اللغة العربية مافقدت من اساليبها ، ويرد إليها ما سلبه المعتدون عليها ، من متانة التأليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه

أما أنت . فقد وفيت من ذلك مالاغاية لمزيد بعده ، ولامطمع لطالب ان يبلغ صعده ، ولو كنت ممن يقول بالشامخ ، لذهبت إلى أن روح ابن المقنع كانت من طيبات الأرواح ، فظهرت بك اليوم فى صورة أبدع ، ومعنى أنفع

ولعلك قد شننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ، ويحملها الزمان إلى ابناء مايستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الابناء كما أجملت فى الصنع إلى الآباء ، وحكمت للغة العربية ألا يدخلها بعد من العجمة ، سوى ماهو فى الأسماء . أسماء الأماكن والأشخاص ، لا أسماء المعانى والأجناس . ومثلى من يعرف قدر الاحسان إذا عم ، ويعلى فكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى :

ولو أنى حببت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمى عن الشكر لك . وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء ؟

عبد الوهاب عزام الخطيب
المدرس بالتربية النسوية بالمنيرة